بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠١١)

"الباب الثاني في ذكر البربر

برابرة وطن الجزائر ومراكزهم به -ج٢- الحياة البربرية - نظام المجتمع البربري"[١].

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فنواصل في قراءة هذا الكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لعلامة الجزائر الشيخ مبارك بن محمد الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وانتهينا إلى الباب الثالث الذي ذكر في فيه البربر ونشأتهم، وانتهينا عند الكلام على قبائلهم، أشار إلى أصلهم ثم أنهم جذمان، وذكر تفاصيل قابئلهم أنهم جذمان: البرنس أو البرانس، والمدغيس أو الأبتر أو البتر، وتحت البرانس قال هم من نسل كنعان، وذكر فيهم نحو عشر قبائل، من أشهرها كتامة، وعجيسة، وأوربية وصنهاجة ..الخ.
وأما الأبتر فهم من بني بر بن قيس غيلان بن مضر، وذكر منهم ثلاث قبائل أو أربع مشهورة، ثم ذكر أين تتواجد هذه القبائل أو البطون أو الأفخاذ، وكنا قد ذكرنا وأشرنا إلى بعض ما وُجد في تلك المناطق التي أشار إليها من علماء برزوا، في الزمن الماضي.

وأما زواغة فهم من ولد سمكان بن يحي بن ضري أو (ضريس)[1] وأقرب ما إليهم من البربر زناتة، لأن أبا زناتة جانا وهو أخو سمكان ابن أبيه. ولزواغة بطون ثلاثة متفرقة في القبائل بطرابلس[2] والجزائر والمغرب الأقصى. وذكر ابن خلدون منهم رهطين بالجزائر: أحدهما بجبال وبسائط غرب ميلة على القرب منها، وهم معروفون حتى اليوم باسم زواغة، وهذه عبارة ابن خلدون:" وفي جهات قسنطينة أيضا رهط من زواغة".

ثانيهما بجبال شلف غرب تاهرت. وذكر البكري مدينة شلف فقال: وتعرف بشلف بني واطيل. وهي لزواغة.

وأما زواوة فهي قبيلة عظيمة تتشعب إلى شعوب عظيمة عرف منها قديما أحد عشر بطنا[3]. وهم إخوة زواغة من ولد سمكان بن يحي. وقال ابن حزم: إنهم من قبائل كتامة. قال ابن خلدون: " والصحيح عندي ما ذكره بن حزم. ويشهد له الموطن ونحلة التشيع مع كتامة".

وقال في موضع آخر: " والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم في بطون كتامة. وهو الأصوب والمواطن أوضح دليل عليه[4]." وغلط من جعلهم إخوة زواغة بأن القبيلة التي هي أخت زواغة تدعى زواوة. والقارئ صحف زاي زواوة بواو زواوة فظن زواوة اخت زواغة[5].

---

[1] من باب الشيء بالشيء يذكر، فيه من العلماء علماء الحديث، عالم اسمه ابن ضريس هو من رواة الحديث، له كتاب في فضائل القرآن مطبوع.

[2] وهي ليبيا، وفيه منطقة أخرى اسمها طرابلس في المشرق، بلبنان، ويفرقون بينهما بقولهم **(طرابلس الغرب وطرابلس الشرق)** وبعضهم اختصر هذا التفريق بأن جعل طرابلس الغرب باسم (طَرَابُلْس) وطرابلس الشرق باسم (أطرابلس) بالهمزة، وقد يقع الخلاف في معرفة الأصل من أين، يقال: طرابلسي، يعني مثل الحطّاب محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي الرّعيني هذا ليبي أصله من الأندلس، وفي غيره الطرابلسي من المشرق، لكن فيما اختلف فيه كالعجلي من أئمة الحديث، من علماء القرن الثالث هجري، يقال: الطرابلسي، هل هو الطرابلسي بمعنى الليبي؟ أو أطرابلسي من الشرق؟ رجحوا أنه من ليبيا.

[3] القبيلة يأتي تحتها البطن، وتحت البطن الفخذ، وهلم جرا، يعني باعتبار أقرب جد وأبعد جد.

[4] يعني كون زواوة من قبيلة كتامة التي هي البرانس، وهذا المشهور في لفظ زواوة، ويقال لهم: لقبايل.

[5] هذا من التصحيف الذي يقع في الأسماء والألقاب، وقد يترتب عليه أخطاء.

وقد اشتهرت مواطن زواوة باسم القبائل وهذه اللفظة تطلق أيضا حتى اليوم على مواطن كتامة، وإن لم تشتهر فيها اشتهارها في وطن زواوة. وقد يكون هذا الإطلاق عاضدا آخر لا يستصوبه ابن خلدون.

ووطن زواوة بجبال القبائل الكبرى ما بين كتامة شرقا وصنهاجة غربا وعجيسة جنوبا.

وأما مكناسة فبطن عظيم من بطون ورسطيف. وورسطيف أخو جانا وسمكان فالثلاثة أبناء يحي بن ضري[1].

والمعروف قديما من بطون مكناسة ثمانية، وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن سجلماسة[2] أعلاه إلى مصبه في البحر.

وذكر البكري أن من القبائل التي تسكن حول تاهرت مكناسة بجوفيها.

وأما زناتة فقبيلة عظيمة من القبائل العريقة في القدم. وبما كان لها من الكثرة تغلبت فيما بعد على بقية بطون ضريسة.

ويرى ديكلوس من متأخري المؤرخين: أن الجيتول أصل صنهاجه زناتة.

قال ابن خلدون: " وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم الى وادي ملوية[3]." قال: " والاكثر منهم بالغرب الأوسط[4] حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم، فيقال: وطن زناتة".

---

[1] الذي هو ضريس.

[2] بالمغرب الأقصى.

[3] هذه المناطق لا تزال إلى الآن بهذه الأسماء.

[4] يعني بهذا البلد.

قال ابن خلدون: وشعوب هذه القبيلة أكثر من أن تحصى. وعليه فانا نقتصر على ذكر الشعوب التي كانت لها شهرة في التاريخ، وهي هذه العشرة: جراوة، اوغمرت، يفرن، مغراوة، واسين، يرنيان، ورجلة[1]، ورنيدين، يلومي، ومانو.

أما جراوة فهم ولد كراو بن الديرت بن جانا (وهو زناتة) وكانوا: قبل الإسلام أهل كثرة وقوة وفيهم رئاسة زناتة.

موطنهم لعهد الفتح بجبل أوراس. ثم تفرقوا من بعد اوزاعا في قبائل البربر بالمغرب الأقصى وغيره.

وأما اوغمرت (ويقال غمرت أيضا) فهم من ولد ورتنيص بن جانا، وكانوا من أوفر بطون زناتة عددا.

قال ابن خلدون: " ومواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة " وذكر مرسي من مواطنهم جبل بني راشد[2].

وأما ورجلة (ويقال أيضا وركلة) فهم من ولد وركلة بن فرني بن جانا[3]. وموطنهم بالصحراء جنوب بسكرة. ولهم مصر اختطوه معروف باسمهم إلى اليوم[4]. وأما يفرن فهم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا[5].

---

[1] التي هي ورقلة. وفيه من علماء الحديث في درجة شيوخ الإمام أحمد، ينسب إلى الورجلاني، وقد سئل عنه الإمام أحمد فذكره بخير، له جزء حديثي لكن ليس من هذه المنطقة.

[2] من جهة شلف.

[3] بعض المناطق تسميتها قد تعود إلى اسم جد أكبر، أو عمل، أو هيئة، أو حادث معين وهكذا.. فقد تبحث عن ورقلة هذا الاسم من أين؟ أصلها ورجلة أو وركلة نسبة إلى هذا الرجل، من ولج وركلة بن فرني بن جانا، وجانا هذه من زناتة.

[4] ونقول إلى اليوم.

[5] ينتهون إلى زناتة.

وهم من أوسع بطون زناتة. وكانت لهم الرئاسة من بعد جراوة[1]. ومواطنهم فيما بين تلمسان وتاهرت وفي الحضنة وجنوب اوراس. وكان لهم ملك في العصر الإسلامي بالمغرب الأوسط ثم الأقصى[2].

وأما مغراوة فهم بنو يصلتين بن مسرا. فهم إخوة يفرن كانوا أوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب منهم. وشعوبهم كثيرة. ذكر ابن خلدون منها ثمانية (منها ديغة والأغواط) ثم قال: وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم.

وكان لهم في العصر الإسلامي ملك بفاس[3] وسجلماسة (تفيلالت) وتلمسان وطرابلس وغيرها.

وموطنهم بالمغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان. ولهم مراكز ايضا من إخوانهم بني يفرن بالحضنة وجنوب أوراس[4].

وأما واسين فهم بنو واسين بن يصلتين أبي يفرن ومغراوة. ولهم أفخاذ عظمت وصارت ذات كثرة وقوة. منها بنو مرين[5] ملوك المغرب في الإسلام، وبنو عبد الواد ملوك المغرب الأوسط، وبنو وتوجين، وبنو مصاب (مزاب)، وبنو راشد، وبنو رزدال في قبائل أخرى. ومواطنهم بالزاب ووادي ريغ وجبل راشد إلى ملوية[6].

---

[1] هذه كلها تدخل تحت زناتة، وهذه القبائل زناتة، كتامة، مصمودة، صنهاجة، هذه كلها ستأتينا وسيأتي ذكرها عند الفتح الإسلامي، ويُعرف ما لها من المواقف.

[2] المغرب الأوسط يعني هذا البلد تقريبا من وسطه إلى غربه.

[3] بأرض المغرب الأقصى.

[4] هؤلاء مغراوة.

[5] وهؤلاء لهم تاريخ معروف في العصر الإسلامي.

[6] بعض الأسماء قد تتشابه وهذه المناطق قد يوجد منها هنا شرقا أو غربا، وكذلك لا تستغرب إذا جئت لبعض بلاد المشرق، قد تجد بعض هذه الأسماء هناك، وهذا من أدلة بعض المؤرخين كون البربر أصلهم يرجع إلى العرب، ومن أدلة ذلك أن بعض المناطق بأسماء هاهنا تجدها في أرض اليمن في حمير وغيرها.

ومما يعين على تحديد موضع هذه المناطق وموقعها وضبط أسمائها الرجوع إلى الكتاب المشهور "معجم البلدان" لياقوت الحموي، وقد ذكر كثيرا من هذه المواطن، وكذلك كتب القواميس ومنها القاموس المحيط للفيروزآبادي، فإنه يرمز إلى البلد أو البلدة بالتاء المربوطة، فيمكن أن تأتي إلى كلمة من هذه الكلمات وتأخذ أصل الكلمة، لتنظرها في القاموس

وأما يرنيان فهم إخوة مغراوة. لهم بطون كثيرة وأفخاذ عديدة. وهم منبثون في مواطن زناتة، واختلطوا قصورا كثيرة على وادي ملوية وأما ورنيدين فهم بطن من بطون دمر. ولهم شعوب كثيرة وفضائل عديدة منها بنو برزال.

وهم بنو ورنيدين بن وانتن بن وارديرن بن دمر بن ورسيك بن الديرت. وكانت مواطنهم غرب جبل بني راشد قبلة تلمسان[1] في البسائط[2] والسهول. ثم انزاحوا[3] عندما غلبهم بنو راشد إلى الجبل المطل على تلمسان، وبنو برزال منهم كانوا بجبل سالات وما إليه من نواحي المسيلة.

وأما ومانو فقبيلة من أوفر قبائل زناتة عددا وأشدها شوكة. وكانت تقطن الجهة الشرقية من أسافل وادي شلف على نهر ميناس.

وأما بنو يلومي فهم أيضا من أوفر قبائل زناتة عددا وأشدها بأسا كانوا يقطنون العدوة الغربية[4] من شلف إلى جبل هوارة وفحص سيرات ويذهبون جنوبا إلى جبل بني راشد.

فيذكر أصل الكلمة فعلا، ومصدرا وتصاريفها، ويذكر معانيها ويتدرج إلى أن يذكر من نُسب إلى هذا الأصل اللغوي ويذكر البلدة، وغير ذلك.

[1] يعني جهة تلمسان، هذا أيضا من الألفاظ التي يستعملونها في نسبة المنطقة، يقال: القِبلية والظّهرية، القبلية أي قبل القبلة، والظهرية في ظهرها، فقد تكون القبيلة الواحدة القبلية، يعني نسبة إلى القبلة، والظهرانية أي إلى ظهر القبلة، وهنا قال: قبلة تلمسان أي وأنت ذاهب إلى تلمسان، جهة تلمسان.

[2] البسائط جمع بسيطة وهي الأرض المنبسطة.

[3] النزوح هو الرجوع والدخول إلى المناطق.

[4] العدوة هو المكان المرتفع.

هذا ما أردنا ايراده من قبائل بربر الجزائر ومواطنهم على ما عرف لهم العرب لأول استيلائهم على المغرب[١]. ولم يزالوا بها إلى القرن الخامس الهجري حينما حمل الهلاليون على هذا الوطن حملة أزاحت كثيرا من قبائل البربر عن مواطنها، وحل الهلاليون محلها[٢].

والظاهر أن المراكز التي أدركها العرب للبربر وعرفوها لهم هي مراكزهم القديمة. إذ لا يعرف التاريخ هاجما غير خريطة إفريقية وملك على البربر أوطانهم وحل محلهم بصفة دائمة غير الهلاليين ومن انضاف إليهم من عرب المائة الخامسة. وعندما يحين القول في هؤلاء العرب ونتكلم على شعوبهم ومراكزهم نذكر- إن شاء الله- المراكز الجديدة للبربر. ونزيد القول في شعوبهم وأفخاذهم بيانا وشرحا[٣].

[١] ممن جمع وكتب في البربر وأنسابهم وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم ومواضعهم وما يتعلق بهم العرب أول دخولهم، يقصد بهم بني هلال.

[٢] يعني هذه المواطن فيها قبائل البربر، ولما جاء بنو هلال من العرب ودخلوا هذه البلاد أخذوا كثيرا من المناطق فبقي البربر ممن بقي من تلك المناطق، ومنهم من ذهب إلى مواطن أخرى.

[٣] يقول إن البربر منذ القديم قبائلهم هذه، ومواضعهم هي التي ذكرت، ولم يزحهم أو يطردهم أو يبعدهم عن مناطقهم أحد إلا ماكان من دخول بني هلال في المائة الخامسة القرن الخامس الهجري، فأخذوا هذه المناطق وأزاحوا البربر عن مواضعهم.

[٦ - الحياة البربرية[١]]

عمر البربر وطنهم الثاني ليبية[٢] (المغرب) قبل التاريخ. فلا جرم كانت حياتهم في البساطة شبيهة بحياة بقية أهل العصر الحجري في المسكن والملبس والمطعم والمكسب. ولكنهم ترقوا[٣]- وفق طبيعة النشوء والارتقاء- في ذلك. وتأثروا بمجاورة الاغريق أولا ثم بمعاشرة الفينيقيين[٤]. وكانوا أسبق من الرومان إلى الاقتباس من حضارتي هاتين الأمتين[٥].

عرف البربر- كسائر البشر- معدن النحاس فانتقلوا من مدنية العصر الحجري إلى حضارة العصر النحاسي[٦]. ولكنهم لم يلجوا هذا العصر الثاني إلا حين اكتشاف معدن الحديد. فاندمج هذان العصران عند البربر في عصر واحد. على أن عصر الحجارة طال أمده بدواخل وطنهم. فعاصر الحديد حينا من الدهر[٧].

---

[١] كيف كانت حياتهم يعني، معاشهم، ملبسهم، مأكلهم، مكسبهم، مساكنهم.

[٢] لأنهم في الأول أتوا من أرض المشرق قبل التاريخ كما ذكرنا.

[٣] يعني تقدموا.

[٤] وهذا سيأتي في الباب الرابع في الفينيقيين الذين هم من ولد كنعان.

[٥] يعني أخذوا من حضارة الإغريق والفينيقيين، وسبقوا إلى التطور والتقدم والازدهار من الرومان.

[٦] يعني استعمال هذا المعدن في أوانيهم ومواعينهم وغير ذلك.

[٧] عرفوا عصر النحاس والحديد في وقت واحد مع أنه تدخل وكان يشاركهم عصر استعمال الحجارة.

من الآثار النحاسية المكتشفة بالوطن الجزائري قطع بضواحي مدينة قيصرية[1]، وأخرى بضواحي مدينة أقسيوم. ووجدت أيضا صفائح نحاسية بمنزل في مغارة قرب مدينة صلداي، ومعها قطع بصدد التكوين لم يزل بها أثر الفحم. وذلك يدل على أنها مصنوعة هنالك وليست منقولة من وطن آخر[2].

١ – المسكن: كان البربر منهم الرحل أهل البيوت التي يخف حملها مهما أرادوا الظعن[3] لانتجاع الكلأ والعشب بمواشيهم[4]، ومنهم المقيمون أهل القرى والمدن[5]، يتخذون بيوتهم إما من الخشب وإما من الحجارة ويغطون سقوفها بالديس

[6] أو غيره من النباتات. ولهم في هندسة البيوت أشكال وفي بنائها كيفيات. منها بناء جدارين متوازيين بالحجارة ثم صب الحصا خلالهما حتى يمتلئ ما بينهما من الفضاء[7].

---

[1] أين تقع قيصرية؟ من الجالسين من هو أعرف بالتاريخ مني، شرشال، وفيه منطقة أخرى جهة قصر البخاري تسمى كذلك فيها واحد من أهل العلم من الجزائر، هذا العالم من جهة قصر البخاري من أهل العلم، ونزل خطيبا في بوسماعيل وشرشال، وأظنه بقي في شرشال إلى أن توفي، في عصر الفرنسي المستدمر، وبقي قريبا من السبعينات. نسبه القصري، الشيخ عبد القادر بن عبد الغفار بن محمد غفايلي، ويرفع نسبه إلى إدريس الأكبر، ولد سنة ١٩٠٣م بضواحي منطقة ولاد عنتر. وهو من هذه المنطقة جهة قصر البخاري.

[2] كانوا معروفين باستعمال النحاس. ولا تزال إلى الآن خاصة في هذا البلد، وأيضا بتونس وأيضا بالمغرب.

[3] أي الإقامة.

[4] ينتجعون بمعنى يبحثون ويتطلبون أماكن فيها العشب كي ترعى أغنامهم.

[5] يعني فيهم الرّحل وفيهم المقيمون.

[6] وعندنا من العلماء جهة بوسعادة عبد الرحمن الديسي، عالم كبير، ومن مؤلفاته "**نظم الورقات**"، "**الورقات**" للإمام الجويني، نظمها في أقلّ النظم عددا في الأبيات، ٩٩ بيتا، كل من نظم الورقات نظمها في أزيد من مائة بيت، وأقلهم ١٧٨ بيتا للعمريطي، وأيضا فيه آخر من الكنتيين نظمها فيما يزيد عن ذلك، عبد الرحمن الديسي نظمها في ٩٩ بيتا، عندي نسخة منها مخطوطة، ولقد أسند وأسنده كثير من العلماء من كبار أهل العلم.

[7] لعله لصد الصوت والرطوبة والبرد ونحو ذلك.

وقد أسس البربر مدنا عظيمة. منها ما طوى عنا التاريخ خبره وأعفى[1] كر[2] الغداة والعشي أثره[3]، ومنها ما بقي ذكره مرعيا لو حوفظ على موقعه فلم يزل موضع عمارته مرئيا[4].

وسنتكلم على ما حفظ التاريخ للبربر من المدن حسبما تدعونا المناسبات.

٢ - الملبس: كان ملابس البربر من الصوف بعد ما عرفوا الحياكة. منها البرنس[5]. وهو ثوب أعلى يسلك في العنق أو يوضع على الأكتاف ينسج قطعة واحدة ويترك من أمام مفتوحا، لا يخاط إلا ما يقابل الصدر منه[6]. وهو قديم بينهم ومعروف عند غيرهم أيضا. فقد كان لباسه شائعا بين اليونان والرومان. ووصف ابن خلدون برانس البربر بأنها كحل[7]. والبربر معروفون بالمحافظة على العوائد العتيقة فلعل هذا الوصف قديم أيضا[8]. ولم يزالوا حتى اليوم بوطن القبائل ينسجون برانس في غاية المتانة والإحكام.

---

[1] أي أزال.

[2] من الكر أي التكرار والترداد.

[3] يعني محى أثر هذه البنايات ذهاب ليل ونهار، وغدوة وعشية، فصار لا يعرف له خبر.

[4] يعني كانت لهم مدن عظيمة، منها ما لم يذكر التاريخ عنه خبر، ومنه ما اندثر وذهب، ومنه بعض الآثار لا تزال، إذا كان حوفظ عليها وإلا زالت.

[5] مشهور عندنا البرنس.

[6] قد لا يخاط من أعلى إلى أسفل، وقد يخاط ما يقابل الصدر منه فقط، يعني أنواع معروفة.

[7] يعني سوداء.

[8] عندي تعليق هنا يحتاج إن نقف عنده **(والبربر معروفون بالمحافظة على العوائد العتيقة فلعل هذا الوصف قديم أيضا)** الذي هو البرنس، الحفاظ على العوائد القديمة لا إشكال فيها، شريطة أن لا تكون معارضة للشرع، طلع علينا رجل وأتى بشيء جديد، قال: لا يوجد مثل الإسلام الأمازيغي! هو من أنقى وأفضل أنواع الإسلام لأنه يمزج بين الروح والجسد، وبين ما جاء به الدين، وما يعيشه الناس في دنياهم فلا يتعرض له. قال وقد ضرب بعضهم أروع الأمثلة في مسجد كذا ومنطقة كذا -لا يحتاج أن أسميها- فإنهم بعد أدائهم الصلاة في المسجد اجتمعوا على مشاهدة فيلم سينيمائي داخل المسجد للمثل الفلاني ..الخ ثم عرض موسيقي وهكذا، وهذا هو أمثل أنواع الإسلام -الإسلام الأمازيغي- الذي يدخل على العبد صلاح الروح ويبقيه على ما هو عليه، هكذا يكون الضلال وإلا فلا، فنسأل الله ﷻ الهداية للجميع، ونسأل الله أن يحفظ هذا البلد، وهذا الدين من الدواخل التي يريدون أن يدخلوها علينا، وعلى ديننا، وكما ذكرت ديننا دين الله ﷻ له رب يحميه سواء كثرت الجهود في عدائه أو لا، فنسأل الله ﷻ أن يهدينا سواء السبيل.

ولونها في الغالب أزرق. فإما أن يكون هذا اللون حدث بعد ابن خلدون وإما أن يكون هو الذي تساهل فعبر بالكحولة مكان الزرقة[1]. والعرب تتساهل في الألوان المقاربة[2].

ومنها القشابية. وهي ثوب أعلى أيضا له أكمام يسلك في العنق ويخاط من أمام، لا يترك منه إلا الجيب (الرقبة) ولا يلبس البرنس فوقها إلا نادرا. وهي قديمة جدا. وكانت من ملابس الرومان أيضا.

ومنها الكساء. وهو قطعة صوف غير مخيطة يشتمل بها الرجال والنساء اشتمال الصماء[3]. وهو قديم أيضا، ومعروف عند قدماء المصريين. ولم يزل لباسه حتى اليوم شائعا في بعض الجهات[4]. وفي أغلب الوطن الجزائري تفننوا في نسجه ورققوه وزينوه بالحرير فصار من ملابس الزينة يختص به أهل الهيئات ويعبر عنه عرب الجزائر بالحائك[5].

ومنها السراويل القصيرة أو الطويلة، وهي معروفة أيضا عند الغاليين قدماء الإفرنج.

ويلبسون غير ذلك جلود الحيوانات بعد دبغها. وهي من ملابس الغاليين أيضا ما زلنا نشاهدها اليوم عند أعقابهم المتمدنين. أما البربر فقد تركوا هذا اللباس من قديم، ولم يحافظوا عليه خلافا لعادتهم في غيره. وقد أحسنوا في رفض لباس يقرب صاحبه في المنظر من الحيوانات الوحشية، ويذكر بأخلاقها في المجتمع صباح مساء.

---

[1] لأن الزرقة إذا اشتدت تميل إلى السواد، مثل الخضرة إذا اشتدت تميل إلى السواد كما في قوله ﷻ {مُدْهَامَّتَانِ}الرحمن٦٤ أي شديدتا الخضرة كأنها سواد.

[2] والألوان لها علم قائم بذاته، وفيها فقه، ألف بعضهم رسالة علمية في أحكام الألوان وفقهها.

[3] قطعة عريضة يشتمل بها اشتمال الصماء، وهذا اشتمال الصماء عندنا حديث في بيان حكم من أحكامه، يقول أبو هريرة ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري، وهو أيضا عند مسلم **(نهى النبي ﷺ عن لبستين وبيعتين وصلاتين)** الصلاتان بعد الفجر وبعد العصر، والبيعتان المنابذة والملامسة، المنابذة أن يقول لك إذا نبذت لك السلعة فقد اشتريتَها، والملامسة أي إذا لمست السلعة اشتريتَها، هذا غير جائز، واللبستان اشتمال السدل واشتمال الصماء، اشتمال الصماء أن يلتحف في ثوب واحد ولا يلبس شيئا تحت هذا الثوب بحيث أنه قد تظهر عورته إذا جلس أو نحو ذلك، فهذا اشتمال الصماء وهو لا يجوز في الصلاة، وكذلك خارج الصلاة إذا كان يخشى أن تظهر عورته.

[4] لا زال إلى الآن موجودا، وأيضا بأرض القبائل معروف.

[5] الحايك هذا بالنسبة للنساء. وكذلك من الناحية اللغوية يقال: حيك الشيء حائكا.

وكانوا يضعون على رؤوسهم "القنور". ويرجع عهده إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد. وقد قدر له أن يعيش - على ثقله حسا ومعنى- هذا العمر الطويل[1]. ولكنه اليوم أدركه الهرم ودب فيه دبيب الفناء ولا ندري متى يحين الوقت الذي يوضع فيه بدار الآثار[2]. وعلى كل حال فلم يكن لباسه عاما. فقد قال ابن خلدون- متحدثا عن عموم البربر-: " ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق[3]" وذكر عن زناتة- وهم من سكان جيتولية على ما سبق- أنهم يلبسون العمائم " يلفون الليت والأخدع قبل لبسها ثم يتلثمون[4] بما تحت أذقانهم من فضلها[5]" وكان بربر نوميديا لا يحلقون رؤوسهم ويفرقون شعرها غديرتين[6] يرسلون مع كل جانب غديرة.

واتخذوا الحلي من النحاس والفضة والذهب خواتم وأساور وخلاخل وغير ذلك، ولم يغيروا إلى اليوم لباسهم القديم إلا يسيرا خصوصا البادين منهم.

٣ - المطعم: لا شك أن البربر كانوا قبل معرفتهم للزراعة يقتاتون من لحوم الصيد والحيوانات الإنسية وبعض النباتات الطبيعية التي لا تضر بمعدتهم. أما بعد أن عرفوا الزراعة فلا ريب أنهم استعملوا من الحبوب ضروبا من الأطعمة، نقلوا بعضها عن غيرهم من الأمم. ومن الأطعمة المنسوبة لهم "الكسكس[7]" وهو اليوم من أهم أغذيتهم. يواظبون عليه للعشاء، وقليلا ما يستعملونه غداء، وقد أثروا على عرب الجزائر في اقتياته فصاروا سواسية في اعتماده غذاء لأبدانهم.

---

[1] يعني شيء كان يوضع على الرأس وطال استعمالهم له.

[2] قد وضع! وجيء بالبيري والكاسكيطا!! -نجيب مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ -

[3] يعني أخذ شعر الرأس.

[4] التلثم هو تغطية من الأنف فما أسفل.

[5] المحنّكة أي مما زاد منها.

[6] الغديرة هي الظفيرة.

[7] الذي نسميه "طْعام" وهذا معروف ومشهور عندنا.

٤ - الكسب: كان البربر من قديم يكسبون الغنم والبقر والخيل الغنم والبقر لنتاجها[1] وألبانها[2] وغير ذلك من فوائدها، والخيل لركوبها إما للصيد واللهو وإما للحرب والغزو[3].

واشتهر في الفروسية بربر نوميديا. وخيلهم كانت قصيرة سريعة العدو. تصلح لاستطلاع أحوال العدو ورد الفارين من الجيش[4]. يلبس الفارس منهم لباسا خفيفا ويحمل سلاحا خفيفا أيضا، ويعتلي صهوة فرسه[5] من غير سرج[6] ولا لجام[7]. وإنما يمسك بيد. قضيبا من خشب يصرف به الفرس طوع إرادته[8]. وهذا دليل على حذقهم في سياسة الخيل ومهارتهم في تربيتها[9]. ومن مكاسبهم الإبل وهي معروفة قديما بآسيا. ولكنها لم تدخل الوطن البربري إلا حوالي سنة ٦٦ (ق. م) قال ابن خلدون: وهي من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب.

---

[1] توالدها.

[2] وهو الحليب، اللبن إذا جاء في النصوص المقصود به الحليب، ويدخل فيه مشتقاته.

[3] وقد قال النبي ﷺ (الخيل أحد ثلاثة) الخيل التي يكتسبها الإنسان أحد ثلاثة (خير يجاهد بها في سبيل الله، فهذه مغنم) وكل ما يقع لهذه الخيل أجر لصاحبها، أكل وشرب وركوب وروث ..الخ هذه أجر لصاحبها (وفرس للمعيشة) يعني للصنعة والمعيشة يعمل به ويسترزق فهذا له، (وفرس يتفاخر بها) فهذا يأثم صاحبه. [نحوه أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٤٩٣)، وأحمد (١٦٦٩٦)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة))(7153)]

[4] نوع من الخيل قصير سريع العدو، الخيل أنواع، ومنه العنصر العربي المشهور المعروف، ومنها الضخام، ومنها ما هو معروف في شدة العدو والجري، ومنها ما هو معروف في القفز، فهو أنواع، وهذه تصلح لاستطلاع الأحوال، يعني القرب من العدو والرجوع، حتى ولو تنبهوا له يسرعون الرجوع فلا يُدركون.

[5] حيث يجلس.

[6] الذي يوضع على الفرس يمكن أن يقعد عليه قعدة مناسبة وملائمة ولا يتعب منها.

[7] ما يوضع على في الفرس ليتحكم به، عليه حديدتان توضعان على طرفي الأنف، فإذا أراد الفرس أن يتغلب عليك جذبتهما فضيقتا على مجاري التنفس فيتوقف.

[8] يعني يشير به على الفرس حتى يدور يمينا أو شمالا، الآن اللجام يوضع عليه حديد يوضع على طرفي الفم، فإذا جذبت تضرر الفرس من الجانب الذي تضرر منه، فيضطر إلى أن يدور، وهكذا، لكن قديما كان عنده قضيب من خشب، فإذا أشار إليه يعني ظل الخشب يراه بعينه فيلتفت إلى الجهة الأخرى.

[9] يعني كان لهم هذا الذكاء وهذا الدهاء.

وكانت لهم معرفة بالصناعات المعدنية وزراعة الحبوب، فكانوا يزرعون الفول. قال بيروني: ويظهر أن أصله من ارض البربر. ويزرعون الشعير، وهو أكثر فلاحتهم، والقمح وحبوبا أخرى. قال بيروني: ولا نعلم أهذه الحبوب محلية أم مجلوبة؟ وكان بوطنهم العنب والزيتون، ولكنه طبيعي غير مغروس[١].

وصنعوا من المعادن ما كانوا يصنعونه من الحجارة وبذلك سقطت الصناعة الحجرية إلا بدواخل الوطن فقد عاشت وترقت حتى صارت في غاية الاتقان.

واتفقت كلمة من وقفنا على كلامهم من المؤرخين أن البربر لم يتعلموا الغراسة إلا من الفينيقيين. أما الفلاحة واستخراج المعادن فقد قال غسال: إن البربر تعلموهما من قدماء المصريين وسكان جزر البحر الأبيض المتوسط، كانوا أولا يقتنون مصنوعات هذه الأمم ويستوردونها ثم تولوا صناعتها بأنفسهم[٢].

---

[١] الذي نسميع (البعلي).

[٢] ما فيه عيب في استيراد الأشياء لكن لا يبقى الإنسان دائما في الاستيراد، لكن يجتهد في أن يصنّعها.

[٧ - نظام المجتمع البربري]

كان البربر مقتنعين- منذ نزلوا ليبية- في حياتهم بما منحتهم الطبيعة[١] من خصب أراضيهم التي كانت - على كثرتهم ووفور عدد قبائلهم- تفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم. فلم يكن لهم من غرض في استعمار وطن آخر، ولا بلغ بهم الجشع أن يسفكوا دماء محترمة، ويصبغوا بلونها القاني ترابا تنبسط نفوسهم من بعد للتمتع فوقه بخيراته وجهود أبنائه المظلومين[٢]. وإنما كانت تقع منهم بعضهم على بعض هجومات أما لصيانة حرمة انتهكت وأما لدالة الشرف حيث يكون منهم ذو عزة بعشيرته فيريد أن يفرض سيادته على جيرانه. وهي سيادة أدبية شرفية غير مشوبة بطمع في مغرم أو انتزاع أرض[٣].

لذلك لم يكن لهم في القديم ملوك عظام ودول فخام وإنما كان منهم أمراء على قبائل وسادات على عشائر.

وكانت السلطة المنزلية بيد الرجل ولذلك كانت أنسابهم تابعة لآبائهم لا لأمهاتهم، وروى هيرودوتس[٤] - على ما ذكر الكعاك- أن نظام الأمومة كان أيضا حالة من حالات المجتمع البربري. تكون السلطة فيه للأم، والأب غير معترف به شرعا والأبناء تابعون لخالهم في الميراث، وفى هذه الرواية يكون البربر أسبق الأمم إلى الاعتراف بحرية المرأة. ويؤيدها أن ابن خلدون ذكر قبائل منهم تنتسب إلى أمهاتها. وذكر رين قبائل عبر عنها بأولاد أمهاتهم. وقد بقي أثر ذلك اليوم عند "اليقاشين"، فإنهم إذا حسبوا لمريض أو غيره

---

[١] هذا التعبير فيه نوع من التجوز، وإنما الذي يمنح هو الله تبارك وتعالى، فالمقصود ما سخره الله في طبيعة سكناهم، التي كانت على كثرتهم ووفور عدد قبائلهم.

[٢] كما يفعل الآن الدول الكبرى، الدولة التي ليست لها من الثروات مثل الذي عند العرب، كأمريكا وغيرها، فإنها تفعل هذه الطريقة، قلة الموارد عندها أو لا تكفيها، فتستعمل الأوطان الأخرى، وبلغت من الجشع ما بلغت، سفكت الدماء وفعلت ما فعلت، كله بدعاوى باطلة.

[٣] هذا حالهم سابقا، كانت الأرض تكفيهم ما يحتاجون إلى أن يعتدوا إلى غيرهم، كانت فيما بينهم بعض الاعتداءات إما رد الثأر، وإما إظهار الشرف، يكون أحدهم له مكانة، فيريد ان تتوسع سيادته على جيرانه.

[٤] وهو مؤرخ يوناني، ويلقب بشيخ التاريخ، وعاش قبل الميلاد بنحو ٤٥٠ سنة.

توصلا للغيب عدوا حروف اسمه واسم أمه دون أبيه. وكذلك إذا رقوا لاحد رقيتهم كتبوا بها اسمه واسم أمه لا أبيه[١].

ونحن- إذا أيدنا وجود نظام الأمومة قديما- لا نريد أنه عام بين البربر بل خاص ببعض الأوساط ونظام الأبوة هو الغالب[٢].

قال مرسي: " ومن غير شك ان لكل قبيلة قوانين تخضع لها. ولم يزل أثرها إلى اليوم في وطن القبائل ".

وقال غسال ويؤخذ من الكتابات الحجرية الأثرية أن فراعنة مصر كانت لهم علاقات بالليبيين وكان الليبيون ينتهزون فرصة ضعف الفراعنة ليغيروا على سواحل النيل ويملؤوا أيديهم من الغنائم. وأحيانا يكونون جندا مرتزقين لدى الفراعنة[٣]. وفي القرن الرابع عشر والثالث عشر (ق. م) كادوا يستولون على مصر، هذا كلام أغسال. وهو- وإن كان تاريخه خاصا بالجزائر- لا يصح حمل كلامه هذا على الجزائريين. وأن كانت الجزائر من ليبية. وإنما يصدق على البربر المجاورين لمصر. أما بربر الجزائر فإن لهم من وطنهم ما يغنيهم عن مزاحمة القبط على النيل.

لذلك عاشوا دهورا متمتعين بلذة البساطة في مجتمعهم أغنياء عن النظام الدولي، إذ لا تحتاج إليه إلا أمة اضطرها ضيق عيشها إلى تعدي بعضها على بعض أو التوسع على حساب أمة أخرى[٤].

عاش بربر الجزائر ما شاء الله أن يعيشوا في راحة من تحمل عبء الملوك ودالتهم، أعزاء عن الخنوع لشهوات الأمراء وجبروتهم حتى ألجأتهم حروب قرطاجنة مع رومة إلى تجشم مرارات النظام الدولي.

أيقظتهم تلك الحروب إلى أن من الأمم ما لها مطامع في استعباد غيرها.

---

[١] وهذا لاشك أنها أمور غير جائزة.

[٢] ينسب إلى الأب وله السلطة على العائلة.

[٣] يعني يطلبون الرزق فيكونون طوع أوامر الفراعنة.

[٤] يعني كان في مجتمعهم وأرضهم ما كفيهم، لا يحتاجون إلى غيرهم، وإنما من احتاج إلى غيره من يضطر لضيق العيش، أو تعدي بعضهم على بعض أو التوسع على حساب أمة أخرى، وهم لا يحتاجون إلى هذا.

فضخموا ملكهم ووحدوا إمارتهم كي يحفظوا وطنهم من عاديات عشاق الزعامة العامة والسيادة السامة. وكان منهم إذ ذاك ملوك سنأتي- إن شاء الله- فيما بعد على تفصيل حياتهم وبيان أعمالهم الجليلة بقدر ما تسمح به المادة التي بأيدينا[1].

[1] نقف عند هذا الحد، والله تعالى أعلى وأعلم.